

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

The Influence of Lacanian Psychoanalysis on the Formation of Ideology Theory in Slavoj Žižek

نصرالدين بوجملين^{1*}، عبد الغني بوالسكك²

¹ مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة باتنة 1 (الجزائر)، nacereddine.boudjemline@univ-batna.dz

² مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة باتنة 1 (الجزائر)، boussekekabdelghani@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2025/09/15

تاريخ الإرسال: 2025/02/22

ملخص:

تحتل مقولات التحليل النفسي اللاكاني موضعاً أساسياً في تشكيل نظرية الإيديولوجيا في أعمال "سلافوي جيچيك"؛ لذلك فإن هذا الأخير يعيد قراءة "جاك لاكان" ضمن نقده للإيديولوجيا، وفي هذا الإطار تحاول هذه الورقة البحثية الكشف عن تأثيرات التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك، وكيف تحكم الإيديولوجيا قبضتها على الفرد من خلال الفهم اللاكاني للذاتية الانسانية، ومنه تهدف هذه الدراسة للكشف عن بنية الإيديولوجيا وتناقضاتها الجوهرية. لتتوصل في الأخير الى نتيجة مفادها أن مجهودات "سلافوي جيچك" في تشكيل نظرية لاكانية جديدة في الإيديولوجيا تطلب منه توظيفاً صارماً للمنهج الجدلي، وفي الآن ذاته إعادة إحياء بعض عناصر الماركسية التقليدية، كما أعاد بحيوية إحياء النقاش حول الإطار الفكري الذي يحكم العلاقة بين التحليل النفسي والسياسي.

كلمات مفتاحية: تحليل نفسي؛ جان لاكان؛ نظرية إيديولوجيا؛ سلافوي جيچيك.

Abstract

Lacanian psychoanalysis plays a fundamental role in shaping the theory of ideology in the works of Slavoj Žižek. He reinterprets Jacques Lacan within his critique of ideology. This research paper aims to explore the impact of Lacanian psychoanalysis on the formation of Žižek's ideology theory and how ideology maintains its grip on individuals through Lacan understands of human subjectivity.

The study seeks to uncover the structure of ideology and its inherent contradictions. Ultimately, we conclude that Žižek's efforts to develop a new Lacanian theory of ideology required a rigorous application of the dialectical method, alongside a revival of certain elements of traditional Marxism. Furthermore, he revitalized the debate on the intellectual framework that governs the relationship between psychoanalysis and politics.

Keywords: Psychoanalysis; Jacques Lacan; Ideology Theory; Slavoj Žižek.

1- مقدمة

تمثل الدراسات المتعلقة بالتحليل النفسي وجها هاما من أوجه البحث العلمي عموما، وعلى صعيد العلوم والأنساق العلمية والاجتماعية والإنسانية، وكذلك الأنساق الفلسفية والفكرية- بصفة خاصة- ولأسباب مختلفة ومتشابهة ظهر تأثير التحليل النفسي في الفكر الفلسفي الغربي المعاصر والراهن مقرونا مع اتساع تطبيقاته المعرفية والمنهجية في مختلف الحقول المعرفية، وهذا الحال أفضى الى ظهور أفاق جديدة للبحث المذكور أفصحت عن نفسها في حيثيات جديدة تخص مجال التحليل النفسي، مما حفز عديد الباحثين والمتفلسفين على- وجه الخصوص- الى فسخ المجال أمام إمكانات استخدام مقولات التحليل النفسي في مختلف الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وهذا بدوره ساهم في بروز مقولة التحليل النفسي كشرطية أساسية من شرائط البحث العلمي الرّصين، بحيث يصح الحديث الآن عن أن مقولة التحليل النفسي أصبحت قاسما مشتركا بين مختلف الدراسات الفلسفية والأبحاث العلمية الأكاديمية والاجتماعية والإنسانية، وإذا ما حاولنا تحديد وضبط أهم صيغها في حضورها ضمن الفكر الفلسفي الغربي المعاصر والراهن سنجدها تبرز في حقول معرفية تنوعت بين القديمة والجديدة ، ومنها: الدراسات اللغوية، النقد الثقافي، الدراسات الفنية والأدبية والجمالية، الدراسات السياسية والنقد الإيديولوجي وغيرها، وانطلاقا من هذه المعطيات وضمن هذا السياق يبرز الفيلسوف السلوفي "سلافوي جيچك"، كأحد أكبر الفلاسفة الغربيين المعاصرين المنخرطين في توظيف آليات التحليل النفسي-خاصة في صورته اللاكانية-

لإعادة إنتاج أو إبداع أو تفسير مختلف التصورات والقضايا الفلسفية، ولعل التدفق الهائل والمتسارع لمقولات التحليل النفسي اللاكاني في كتابات "جيچك" المتعددة دليل قاطع وحاسم على الحكم الذي ذكرناه، ولا نكون مبالغين إذا ما قلنا بصيغة مكثفة أن الفلسفة الجيجيكية أصبحت بمثابة الحاضنة الأولية والعامة للتحليل النفسي اللاكاني خاصة في مجال الدراسات السياسية والنقد الإيديولوجي، وبفضل "جيچك" أصبحت النظرية اللاكانية أداة فعالة وشائعة الاستخدام في تحليل التشكيلات السياسية والاجتماعية.

إن نظرية الايديولوجيا التي أثارها "سلافوي جيچك" والتي هي ذات حضور كثيف في كتاباته، جاءت لتعيد إحياء النقاش حول العلاقة بين التحليل النفسي والسياسة، وفي ضوء هذه الملاحظة يصبح الطريق معبدا للقول بأنها جاءت لتجيب عن التساؤل حول علاقة الذات بالخطاب الايديولوجي، وفي ضوء هذا المعطى نتساءل: ما هي المقولات اللاكانية التي وظفها جيچك لبناء نظريته في الايديولوجيا؟ ثم ما هي التأثيرات اللاكانية التي كانت وراء نشوء فلسفة سلافوي جيچك في الايديولوجيا والتي اخترقت مضمونها وساهمت في صوغها في كيفيات وأنساق متنوعة؟

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

2- أهمية التحليل النفسي.

حدّد "سلافوي جيچك" في مقدمة كتابه الصادر سنة 1989 "the sublime object of ideology" وترجمة عنوانه المحتملة الى اللغة العربية "الموضوع السامي للإيديولوجيا" البنية الثلاثية المركبة لهدف مشروعه الفلسفي، والتي أفصح عنها في ثلاث وضعيات: واحدة تتمثل في تقديم المفاهيم والمنطلقات والمرتكزات الرئيسية للتحليل النفسي اللاكاني في صيغة ذات طابع يتسم بالعمق في التحليل والوضوح في التقديم، وثانية تظهر رغبته في إعادة إحياء المنهج الهيغلي من خلال استدعاء مقولات التحليل النفسي اللاكاني، وأخيرا ثالثة تتبلور في إمكانية صياغة نظرية جديدة في الإيديولوجيا ضمن إطار العلاقة المعقدة والمتشعبة بين الماركسية والتحليل النفسي اللاكاني، ومن شأن ذلك الإشارة الى كيفية التقاء هاته الفئات المتباينة من المفاهيم والمقولات المنهجية في مشروع "جيچك" الفلسفي بالرغم من اختلاف منطلقاتها وتوجهاتها. إن هذا الاختلاف لم يمنعهما من أن تظهر كأطر فكرية مشكّلة لبنية مفهومية واحدة اتخذ منها "جيچك" أساسا ومنطلقا شاملا للتحليل والنقد الايديولوجي، وضمن هذا السياق يقول جيچك "إنني أعتقد أن هذه الأهداف الثلاثة مترابطة بشكل عميق، فالرؤية الوحيدة القادرة على إنقاذ هيغل لا تكون إلا من خلال لاكان، وهذه القراءة الهيغلية للإرث الفكري الهيغلي تفتح أفقا لفهم الإيديولوجيا". (Žižek, the sublime object of ideology, 1989, p. 07)

إن هذا النص يكشف بوضوح تام على أن تقديم رؤية جديدة لكيفية عمل الإيديولوجيا يستوجب المرور عبر الموضع التحليلي "لجان لاكان"؛ لذلك فإن جهد "جيچك" كان منصبا منذ البداية على إعادة موضعة التحليل النفسي داخل الحقل الإيديولوجي والسياسي، ليس فقط لاستخدام "لاكان" في قراءة أفكار "كارل ماركس"، بل كذلك لإعادة تأويل الإيديولوجيا من خلال البنية اللاوعية التي تحكمها، وفي ضوء هذا الحكم نتساءل: ما أهمية المنتج الفكري اللاكاني بالنسبة لجيچك؟

في عام 2006م نشر "سلافوي جيچيك" أحد الكتب الهامة في مسيرته الأكاديمية تحت عنوان "How to Read Lacan"، وقد ترجم مؤخرا الى اللغة العربية تحت عنوان "كيف تقرأ لاكان" ترجمة عبد الفتاح عبد الله، والحق لم يكن هذا الكتاب الأول الذي نشره "سلافوي جيچيك" حول "جاك لاكان" فقد نشر قبله العديد من الأعمال والدراسات، ومنها نشره سنة 1988 لكتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان "tout ce qui vous avez voulu savoir sur Lacan" و"sans jamais oser le demander à Hitchcock" والترجمة العربية المحتملة للعنوان "كل ما تريد معرفته دائما عن لاكان ولم تجرؤ أبدا على سؤال هيتشوك"، وكذلك نشر سنة 1992 كتاب باللغة الانجليزية عنوانه "enjoy your symptom: Jacques Lacan in Hollywood and out"

وترجمة عنوان المحتملة باللغة العربية "استمتع بأعراضك: جاك لاكان داخل هوليود وخارجها"، كما نشر "جيجك" نصا آخر تناول فيه التحليل النفسي اللاكاني تحت عنوان "looking awry: introduction to Jacques Lacan thought popular culture" وترجمة عنوان المحتملة الى اللغة العربية "النظر منحرفا: مقدمة لجاك لاكان من خلال الثقافة الشعبية"، وكذلك نشر سنة 2006 كتابا باللغة الانجليزية تحت عنوان: "Lacan the silent partners" وترجمة عنوانه المحتملة الى اللغة العربية "لاكان: الشركاء الصامتون" ناهيك عن عشرات المقالات والمداخلات والدراسات التي أهداها "جيجك" إلى معلمه وملمه الأول "جاك لاكان"، وبالعودة الى الكتاب الذي تكلمنا عنه في البداية "How to Read Lacan"، فقد حاول "جيجك" من خلاله أن يحفز العواطف لدى جمهور واسع من القراء والمهتمين والأكاديميين بأهمية التحليل النفسي عامة، والتحليل النفسي اللاكاني على وجه الخصوص، ولعل هذا الأمر يزداد ويتعاضد حين نعرف أن المشروع الفلسفي الجيجيكي كله يركز على التحليل النفسي اللاكاني، والجدير بالذكر أن "جيجك" لم تثر انتباهه التأملات اللاكانية حول الممارسة السريرية العيادية، بقدر ما كان يبحث بشغف عن الجانب الفلسفي في الخطاب اللاكاني، يقول "سلافوي جيجك" في هذا الصدد: "بالنسبة الى لاكان التحليل النفسي ليس مجرد نظرية وتقنية لعلاج الاضطرابات النفسية من الناحية المبدئية، بل هو نظرية وممارسة تواجه الأفراد بالبعد الأكثر راديكالية للوجود الانساني". (Žižek, How to Read Lacan, 2006, p. 03) لذلك فإن هذا الكتاب السالف الذكر نوع من الإقرار والاعتراف الذي قدمه "جيجك" بفضل التحليل النفسي اللاكاني عليه، وفي الآن ذاته حاول "جيجك" من خلاله أن يقدم للقارئ نسخة مبسطة منه-خاصة وأن أعمال جاك لاكان اشتهرت بكونها غاية في التعقيد وصعوبة الفهم- لذلك فقد عمل "جيجك" جاهدا على استجلاء الخطوط الأساسية والكبرى للمنتج الفكري اللاكاني وعمل بدون هوادة على تبسيطه، وهو إن فعل ذلك فإنما فعله ليس فقط بغية تقريب القارئ من فكر "لاكان" وتفسير أطروحاته، بل كذلك ايجاد معنى واضح ومرضي فيها.

يستخدم جيجك الكثير من المفاهيم والمصطلحات والمقولات اللاكانية، وسنأتي على التفصيل في بعضها لاحقا من قبيل: الخيالي، الرمزي، الواقعي، الاستمتاع، الرغبة، الدافع، طور المرأة، الآخر الكبير، الآخر الصغير، الحلم... الخ، لتطوير عمله الفلسفي بشكل عام وتحليله الإيديولوجي بشكل خاص، وما ينبغي الإعلان عليه في هذا السياق وعبر تفحص وتمحيص ذلك المخزون من الأفكار اللاكانية، وتلك الآثار المترتبة عنه التي طبعت فكر "سلافوي جيجك"، يكمن أساسا في النظر إلى فلسفته على أنها وإن مثلت وضعية جديدة وأصيلة في الفكر الفلسفي العالمي الراهن، فهي مع ذلك لم تخرج عن جدلية الاتصال والانفصال؛ وبموجب هذا الحكم يجذر بنا القول أن التحليل النفسي اللاكاني يمثل مصدرا وركنا أساسيا في النظام الفلسفي الجيجيكي، ولا

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

يمكن فهم هذا الأخير عند انتزاعه من الرفض اللاكاني الذي يرجع إليه، ففلسفة "جيچيك" تنهل وتتشرب من معين التراث الفكري اللاكاني، لكنها في الآن ذاته فلسفة أصيلة وخالصة.

3- الإيديولوجيا في لحظاتها الجدلية الثلاثة.

إن تحليل ووصف "سلافوي جيچيك" للإيديولوجيا ونقدها ينبع عنده من ثلاث لحظات أساسية، الإيديولوجيا في ذاتها (أي بوصفها مجموعة من التعاليم الفكرية) والإيديولوجيا لذاتها (أي بوصفها مجموعة من المعتقدات) وأخيرا الإيديولوجيا في ذاتها ولذاتها (أي بوصفها متجسدة في الممارسات المادية للأفراد).

3-1- الإيديولوجيا في ذاتها.

تشير هذه الفئة الأولى من الإيديولوجيا إلى النظرية الماركسية التقليدية حول الإيديولوجية كما صاغها "ماركس" و "أنجلز": أي الإيديولوجيا باعتبارها نسق من الأفكار والقيم والمعتقدات التي تعكس البنية الاقتصادية والاجتماعية السائدة، وعليه يتم تعريف الإيديولوجيا بكونها منظومة دلالية تعمل على تشويه إدراك الأفراد لواقعهم الاجتماعي، كما أنها آلية تقوم بإعادة إنتاج علاقات القوة عبر خطاب يطمس التناقضات الجوهرية داخل البنية الاجتماعية مما يعيق تشكل وعي نقدي تحرري قادر على إحداث التغيير الراديكالي؛ لذلك فالخطابات الإيديولوجية الزائفة تعمل على تشويه وعي الأفراد بحقيقة نظامهم الاجتماعي. (Sharpe, Slavoj Žižek a little piece of the real, 2004, p. 24) أو أنها تكرر الواقع كحتمية تاريخية غير قابلة للتجاوز، وبالتالي يتم قمع أي إمكانية لوجود بدائل راديكالية، وبلغة "تيري أيجلتون" تسويق الواقع السياسي القائم على أنه الأفضل من بين جميع العوالم الممكنة، وفي نهاية المطاف، ووفقا لهذا النمط من التفكير فإن الفكرة الإيديولوجية هي التي تكون بطريقة أو بأخرى ملائمة لحكامنا؛ أي أنها تعمل على إخفاء أو تطبيع أو إطفاء الشرعية على أي شكل من أشكال السلطة الغير عادلة. (Eagleton, 1994, p. 07)

3-2- الإيديولوجيا لذاتها.

إن هذه الفكرة تستند إلى التمييز الهيغلي الماركسي بين الإيديولوجيا في ذاتها ولذاتها، حيث تشير الإيديولوجيا لذاتها إلى لحظة الوعي الذاتي؛ أي حينما تتجلى الإيديولوجيا ليس فقط كمنظومة مفاهيمية متضمنة في الخطاب، وإنما كقوة مادية متجسدة في البنية المؤسساتية والممارسات الاجتماعية، فهي كما يقول "توني ماير": "تعمل من خلال شبكة المظاهر المادية وعن طريق أجهزة الدولة ومؤسساتها". (Myers, 2003).

هذا الطرح يحيلنا إلى مفهوم الإيديولوجيا عند "غرامشي" باعتباره أول فيلسوف ماركسي نظر إلى الإيديولوجيا وفق هذا التصور، ففي اعتقاده الإيديولوجيا لا تعمل فقط من خلال القسر المادي للدولة، بل أيضا من خلال السلطة الثقافية والقبول الطوعي من قبل الأفراد، وهنا يبرز

"غرامشي" مفهوم الهيمنة، حيث لم يعد يرى السيطرة الطبقيّة بوصفها مجرد نتيجة للقوة المادية أو للعمليات الاقتصادية، بل كعملية إيديولوجية معقدة تتجسد من خلال المؤسسات الثقافية والاجتماعية، فالهيمنة لا تعمل فقط من خلال الإكراه بل عبر بناء اجتماعي يجعل النظام القائم يبدو طبيعياً وضرورياً بل وحتى مرغوب فيه، ورغم أن الإيديولوجيا تعد جزءاً أساسياً من هذه العملية إلا أن هذه الهيمنة تشتمل على العديد من الإجراءات والوسائل الأخرى. أما بالنسبة "لسلافوي جيچيك" فإن الشخصية الرئيسية في تفسير الإيديولوجيا لذاتها هو الفيلسوف الفرنسي "لوي ألتوسير"؛ إذ منح هذا الأخير بعداً بنيوياً ومؤسسياً كان غائباً في التراث الماركسي التقليدي، ففي حين ركز "ماركس" على الإيديولوجيا باعتبارها وعياً زائفاً، وسعى "غرامشي" إلى توسيعها من خلال مفهوم الهيمنة، فإن "ألتوسير" قدم قراءة أكثر جدة وجدية تُركّز على إعادة إنتاج المجتمع من خلال أجهزة الدولة الإيديولوجية (الجهاز التعليمي، الديني، العائلي، السياسي، النقابي، الثقافي، وسائل الإعلام)، فالدولة لا تعتمد فقط على أجهزتها القمعية (كالشرطة والجيش والقضاء) للحفاظ على النظام، بل تعتمد أكثر على أجهزتها الإيديولوجية التي تعمل على تشكيل الأفراد بطريقة تجعلهم يعيدون إنتاج علاقات الإنتاج القائمة طواعية دون الحاجة إلى الإكراه المباشر، وتقوم هذه المؤسسات بإدماج الأفراد في الأدوار الإيديولوجية المحددة لهم، (Eagleton, ideology, 1994, p. 94) وفي هذا الشأن يقول سلافوي جيچيك: "الإيمان الديني على سبيل المثال ليس مجرد قناعة داخلية أو تجربة ذاتية بحثة، بل هو مرتبط بشكل جوهري بالمؤسسة الدينية وطقوسها (مثل الصلاة، التعميد، الاعتراف)، فهذه الطقوس التي قد تبدو وكأنها مجرد تعبير خارجي عن الإيمان الداخلي ليست ثانوية أو عرضية بل تمثل الآليات الفعلية التي تنتج الإيمان نفسه". (Žižek, mapping ideology, 1994, p. 12)

3-3 الإيديولوجيا في ذاتها ولذاتها.

يمثل هذا الطرح الجيجيكي نقطة تحول مفصلية في فهم الإيديولوجيا، حيث ينفصل عن الطروحات الماركسية التقليدية القائمة على الفصل بين الاقتصاد والثقافة (البنية التحتية والبنية الفوقية) باتجاه رؤية أكثر تكاملية، وحتى مع التعديلات التي أقرها "غرامشي" و "ألتوسير" ظل هناك نوع من الاعتراف بهذا الانفصال وإن كان بصيغة مرنة؛ لكن في مستوى الإيديولوجيا في ذاتها ولذاتها يصعب رسم حدود فاصلة بين البنية التحتية والبنية الفوقية (الاقتصاد والثقافة)، حيث تتحول الإيديولوجيا إلى بنية متغلغلة ومتجذرة في الواقع ذاته، ولا تحدد هذه الأخيرة كيف نفكر فقط بل كذلك كيف نعيش ونختبر العالم، وبالتالي تصبح الإيديولوجيا نظاماً شاملاً يصوغ الواقع، بحيث يصعب تخيل بديل جذري للوضع القائم، وفي هذا الصدد يشير "جيچيك" إلى مفهوم "صنمية السلع"؛ حيث يأخذ هذا المفهوم إلى مستوى أكثر عمقا، بحيث أن صنمية السلع ليست مجرد نتيجة للإيديولوجيا الرأسمالية؛ أي ليست مجرد عرض كما كان يعتقد، بل هي الإيديولوجيا

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

ذاتها وقد تجسدت في بنية الاقتصاد نفسه؛ أي أصبحت أيديولوجيتها الخاصة وبالتالي تحولت الى صنم. (Sharpe, Slavoj Žižek a little piece of the real, 2004)

هكذا ينتقل جيچك في تفسيره للإيديولوجيا من مستوى "المعرفة" الى مستوى "الفعل"؛ فإذا كان الطرح الماركسي يؤكد أن الإيديولوجيا الرأسمالية تنتج وعيا زائفا في أذهان أفراد الطبقة الكادحة، بحيث يفعلون ما لا يعون، فإن "جيچك" يرى أن الإيديولوجيا تقدم نفسها بمثابة صنم يجسد باستمرار "وعيا زائفا"؛ لكنه يتمظهر فقط في الطريقة الخادعة والواعية لإدراك أفراد الطبقة الكادحة لواقعهم، فتمثل هذه الأخيرة طوعية لواقعها دون شك في أسسه وحقيقته، وفي هذا الشأن يؤكد جيچك "تجسد الإيديولوجيا الواقع، وليست مجرد تمثل وهي للواقع، ومن ثمة يتعين النظر الى الواقع ذاته على أنه قوة تُدخل في مسار وعينا مجموعة من الأوهام-أي أنه متجسد في قالب أيديولوجي-وهذا الأخير يمثل واقعا اجتماعيا واقتصاديا معينا يزعم الخاضعون له أنهم لا يعرفون جوهره (...) ومن هذه الناحية ليست الإيديولوجيا وعي زائف بطبيعة الواقع، وانما هي ذلك الواقع نفسه بقدر ما يدعمه الوعي الزائف". (Žižek, the sublime object of ideology, 1989, pp. 15-16)

إن هذا المنعطف الحاسم في فهم الإيديولوجيا من كونها عرضا لكونها صنما؛ الذي أفضت إليه فلسفة "سلافوي جيچيك" يعد بلا شك أحد أبرز إسهاماته الفكرية في النظرية السياسية المعاصرة؛ إذ لا يكفي أبدا القول أن الإيديولوجيا تعمل فقط على تشويه الوعي أو استغلال الأفراد، بل إن هؤلاء يعرفون تماما أن الإيديولوجيا تشوه إدراكهم وتهدف الى استغلالهم ومع ذلك فهم يخضعون طوعية لها، وهذا من شأنه التأكيد على صسمية الإيديولوجيا. (جيچك، بداية كمأساة ونهاية كمهزلة، 2015، صفحة 102) وما يعيننا من ذلك أن الطرح الماركسي التقليدي الذي يفسر الإيديولوجيا باعتبارها وعيا زائفا؛ أي "أنهم يجعلون ما يفعلون"، وهذا ما يجعل الأفراد منساقين تماما مع مصالح النظام الرأسمالي وجاهلين بطابعه الاستغلالي لم يعد ممكنا في نظر "جيچك" الآن، وبدلا من ذلك يتجه جيچك الى الإقرار بأن الإيديولوجيا تفصح عن نفسها بمثابة قوة خادعة تستهدف توجيه الأفراد وتحديد طريقة ادراكهم للواقع؛ أي بالصيغة الجيجكية المكثفة "إنهم يعرفون جيدا ما يفعلون ومع ذلك يفعلونه". (Žižek, the sublime object of ideology, 1989, pp. 24-30)

يظهر تحليل جيچيك للإيديولوجيا من خلال الفئات الثلاثة السالفة الذكر (الإيديولوجيا في ذاتها، الإيديولوجيا لذاتها، الإيديولوجيا في ذاتها ولذاتها) على أن هذه الأخيرة ليست مجرد وعي زائف أو منظومة خطابات، بل هي بنية متداخلة مع الواقع نفسه؛ لذلك فإن الإيديولوجيا وفق المقاربة الجيجكية تعمل باستمرار على إحداث شرح بين مستوى الاعتقاد ومستوى الممارسة، كما أنها تحدد الأطر المشكلة لسلوك الأفراد، فالإيديولوجيا تتجسد في بنية النظام ذاته وليست

مجموعة من الأفكار كما كان يُعتقد، يقول جيجك " إن المعنى الإيديولوجي لفكرة ما لا يكمن في الفكرة ذاتها، بل يتوقف على طريقة النظر إليها". (Slavoj, 2002, p. 78) إنها ليست مجرد أداة للهيمنة، بل إطار يتحرك داخله الأفراد دون وعي كاملا به، وكما يؤكد "ماثيو شارب" فإن الإيديولوجيا وفق منظور "جيجك" تظل مفهوما لا يعرف الثبات والاستقرار، بل كيانا متدرجا تتغير معانيه وفق السياقات التي يستخدم بها. (Sharpe, Slavoj Žižek a little piece of the real, 2004)، غير أن هذا لا يعني أبدا أنه هذه المستويات الثلاثة للإيديولوجيا (الإيديولوجيا في ذاتها الإيديولوجيا لذاتها، الإيديولوجيا في ذاتها ولذاتها) منفصلة عن بعضها بشكل كلي، بل على العكس من ذلك تماما، فهي مترابطة مع بعضها على مستوى جد عميق؛ إذ يُظهر تحليل "جيجك" لها أنها تتوافق بشكل ألي مع فعالية الإيديولوجيا، وإذا تم التخلي عن واحدة منها لا يمكن حينئذ أن تتكشف في ممارسات اجتماعية ملموسة، ولا يمكن كذلك لهذه الممارسات أن تُولد عقائد، (Sánchez, 2008) وبعبارة أخرى يمكن القول بصيغة مكثفة أن العلاقة بين الإيديولوجيا والممارسة الاجتماعية هي علاقة تتسم بالطابع الجدلي، فالإيديولوجيا تتجسد في الممارسات، وهذه الأخيرة بمجرد أن تصبح متأصلة في الحياة الاجتماعية تخلق بدورها قنوات تعزز الإيديولوجيا ذاتها.

إن هذا التحول الذي أحدثه "سلافوي جيجك" في نظرية الإيديولوجيا من مستوى الاعتقاد (الفكري) إلى مستوى الممارسة (المادي)، ومن مستوى الوعي الزائف إلى مستوى تزييف طريقة الإدراك ذاتها، فرض عليه كذلك التحول في مقاربة النقد الإيديولوجي من الاستيمولوجيا الهيغلية-الماركسية التقليدية إلى استيمولوجيا لاكانية قائمة على مقولات التحليل النفسي، ولا يمكن فهم هذه الأخيرة بمعزل عن ثلاثية جاك لاكان الوجودية: (النظام الرمزي، النظام الخيالي، النظام الواقعي)، فما هو التحليل الذي قدمه جيجك للإيديولوجيا من خلال هذه الفئات الثلاثة للذات؟

4- تحليل الإيديولوجيا من خلال الفئات اللاكانية الثلاث (الرمزي، الخيالي، الواقعي).

إن بناء "جيجك" لنظريته في الإيديولوجيا انطلق من خلال الفئات اللاكانية للذات (الرمزي، الخيالي، الواقعي)، ومن خلال هذه الأخيرة يتجاوز "جيجك" الأطر التقليدية المشككة لنظرية الإيديولوجيا، التي تحصر هذه الأخيرة في الصراع الطبقي والوعي الزائف إلى الكشف عن تعقد العلاقة بين الوعي واللاوعي داخل بنية الإيديولوجيا (campos, 2021, p. 13) ومن خلال استخدام "جيجك" للفئات اللاكانية السالفة الذكر، فإنه يجعل من التحليل النفسي اللاكاني إطارا متينا لتحليل الإيديولوجيا، ليس بوصفها فقط نظاما اجتماعيا، بل باعتبارها كذلك نظاما نفسيا معقدا، وبهذا المعنى فالإيديولوجيا ليست مجرد أداة خارجية لفرض القيم أو المعتقدات، بل منظومة متأصلة في عمق الذات الانسانية، تحمل من خلال التفاعل الجدلي بين مكوناتها الثلاثة: الخيالي، الرمزي والواقعي.

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

يعتقد جيچيك أن الذات الإنسانية في علاقتها بالإيديولوجيا تتحدد من خلال فراغ وفجوة لا يمكن بأي حال ملؤها بين التمثيل الرمزي والواقعي، وبذلك يصبح النقص غير المحدد في الذات جوهرية، فالذات لا تستطيع تحقيق الانسجام التام مع النظام الرمزي الذي تنتهي إليه، وهذا يشير إلى تعقد العلاقة بين الذات والإيديولوجيا، أما "الواقعي" فهو الذي يتجاوز قدرة النظام الرمزي على استبعاده، أي ما يبقى خارج عملية الترميز والذي لا يمكن التعبير عنه، ولا تمثيله أو تفسيره لأنه بطبيعته يتجاوز قدرتنا على الإدراك؛ لذلك فإن "الواقعي" يشكل فجوة تأسيسية تجعل الإيديولوجيا دائما غير مكتملة ومؤقتة، فالإيديولوجيا على الرغم من محاولتها تقديم تفسير شامل للواقع، تبقى دائما غير قادرة على سد الفجوة بين الرمزي وموضوعه الواقعي (Slavoj, Violence: Six Sideways Reflections, 2008, p. 13)، مما يجعلها عرضة للنقد وإعادة التفسير، وبالإضافة إلى هذا فإن العلاقة بين النظام الرمزي والنظام المتخيل تؤسس مستويين متباينين من الارتباط الإيديولوجي وهما:

أ- النظام الرمزي: يمثل الإطار الاجتماعي اللغوي؛ الذي يشكل علاقة الذات بالعالم الخارجي، إنه النظام الذي يدرج الذات ضمن البنية الاجتماعية، ويحدد دورها وقيمتها بناءً على معايير وقواعد مشتركة، إنه الآخر الكبير بلغة جيچيك.

ب- النظام المتخيل: ويوفر بعدا تكميليا، حيث يخلق سرديات وأوهام في تفسير علاقة الذات بالنظام الرمزي، ومن خلال هذه الأوهام الخيالية يتم تغطية التوترات والفجوات في العلاقة بين الذات والبنية الاجتماعية. (Žižek, the sublime object of ideology, 1989, p. 13)

إن هذا التداخل بين النظام الرمزي والخيالي يبين كيف تُبنى الإيديولوجيا على مستويين مترابطين، فالأول ينظم علاقة الذات بالمجتمع، والثاني يبرر تلك العلاقة عبر آليات خيالية تجعلها تبدو حتمية أو منطقية. في هذا السياق، قد تظهر الرأسمالية مثلا باعتبارها نظام "واقعي رمزي"، أي أنها واقع ممثل من خلال رموز وإيديولوجيات، تعيد إنتاج نفسها باستمرار، بينما تبقى في الوقت نفسه غير قابلة للإدراك بشكل كامل، فرغم حضور الرأسمالية المكثف في الحياة الاجتماعية، إلا أنها مع ذلك تبقى عصية على الفهم والإدراك الكامل لها بسبب ما أنتجته من تمثيلات رمزية؛ التي تمنحها شكلا من الهيمنة الغير قابل للنقد المباشر؛ لذلك تنشأ الانقسامات بين الإيديولوجيا التأكيدية (الإيجابية)؛ التي تحاول الحفاظ على النظام القائم واستمراره والإيديولوجيا (السلبية) المعارضة التي تسعى إلى مقاومة النظام وانهاؤه. (Daly, 2004, pp. 150-151)

تمثل العلاقة بين النظام الرمزي والنظام الواقعي واحدة من أهم العلاقات في نظرية "جيچيك"، بينما يمثل النظام الرمزي البنية التي من خلالها يتم تمثيل العالم والتفاعل معه عبر اللغة والقيم والعادات والتقاليد الاجتماعية والأعراف والقوانين وغيرها، أما النظام الواقعي فهو الذي يفوق التمثيل الرمزي، ومن خلال هذه العلاقة يتضح أن الواقع حسب "جيچيك" ليس

مجرد شيء يمكن الوصول اليه بشكل مباشر، بل يتم تدمجته وتمثيله عبر اللغة والتصورات الرمزية التي تجعل الفرد يختبر واقعه ضمن حدودها، مما يعني أن كل وعينا بالواقع مشروط بالإطار الرمزي الذي نعمل من خلاله؛ لذلك فإن "جيجيك" يربط استقرار الواقع باستقرار المعنى داخل أطر النظام الرمزي، وفي هذا يقول جيجيك: "النظام الرمزي وبالضبط هذا النظام الشكلي الذي يعمل أو يعطل العلاقة الثنائية بين الواقع الخارجي والخبرة الذاتية". (Žižek, The Sublime Object of Ideology, 1989, p. 13)

يظهر مما سبق أن أي معنى يقدمه النظام الرمزي، فإن الواقعي يشير إلى احتمالية ذلك المعنى، ولكن لا يمكن أن يتجسد إلا من خلال التناقضات في الواقع الرمزي نفسه؛ لذلك فإنه وفق المنظور الجيجيكي لا تعمل الايديولوجيا فقط على تمثيلات زائفة للواقع، بل هي جزء من خلق الواقع نفسه في مواجهة الفراغ المعنوي الذي يعاني منه النظام الرمزي للواقع للهروب من غياب المعنى، فالإيديولوجيا هي الآلية التي تخفي نقص النظام الرمزي، وتعمل على ملء الفجوات المعرفية والتناقضات التي تتواجد فيه، وهذا لا يتأتى لها إلا من خلال استخدام "الأخر الكبير"؛ الذي يعمل على ضمان المعنى، هذا الأخير هو نوع من الخداع الذاتي، حيث التكرار المستمر لهذا الرمز يبقّي الذات بعيدة عن مواجهتها لفراغها الداخلي، ويجعلها تستمر في تقبل الواقع الرمزي على أنه واقع حقيقي ومتماسك؛ لذلك فإن المهمة الحقيقية للنقد الإيديولوجي هي الكشف عن هذه التناقضات، يقول جيجيك: "إن الخطوة الحاسمة في تحليل أي صرح إيديولوجي تتلخص في الكشف عن هذه العملية الذاتية المرجعية والتكرارية، والأداتية وراء الروعة المبهرة والجذابة للعنصر الذي يوجده (الله، الوطن، الحزب، الطبقة)". (Žižek, the sublime object of ideology, 1989, p. 109)

مما سبق تحليله يظهر أن الارتباط بين الرأسمالية والنظام الواقعي، يمكن إدراجه ضمن البنية المفاهيمية للإيديولوجيا، وجيجيك لا يحدد في ما إذا كانت الرأسمالية هي "الواقعي-الرمزي" أم هي الواقعي بحد ذاته؛ فإذا كانت تسمى لـ "الواقعي-الرمزي"، فهذا يعني أنها تعمل كتشكيكة من التمثيلات والخطابات التي تعيد إنتاج نفسها داخل المجال الإيديولوجي، مما يجعلها بنية دلالية قابلة للمراجعة النقدية، أما إذا كانت تحتل "الواقعي" بحد ذاته، فهذا يفترض مسبقاً أنها نقطة قصوى للمفارقة البنيوية، وبالتالي فهي بهذا الاعتبار غير قابلة للفهم والتأويل والتمثيل والترميز، إنها تشكل لحظة انهيار المعنى ذاته، في هذا السياق، فإن وضع الرأسمالية في نطاق "الواقعي"، يعني أنها غير قابلة للتنظير بشكل مثالي، وهذا يتنافى مع جهود جيجيك في ممارسته للنقد الإيديولوجي بغرض الكشف عن تناقضات النظام الرأسمالي، لذلك فإن مخرج جيجيك من هذه الوضعية المتناقضة هو تأسيس جيجيك لفئات متمثلة من الواقعي "الواقعي الخيالي، الواقعي الرمزي، الواقعي الواقعي"، (Sharpe, Slavoj Žižek a little piece of the real, 2004, pp. 201-202) يقول

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

سلافوي جيچيك: "تعكس ثلاثية الخيالي، الرمزي، الواقعي نفسها ضمن ترتيب الواقع، بحيث تميز بين "الواقعي الواقعي" (الشيء المرعب الكائن الأولى مثل خلق ايرما)، و"الواقعي الرمزي" (الرمزي الذي يتحول الى صيغة بلا معنى مثل صبغ فيزياء الكم التي لا يمكن ترجمتها مباشرة أو ربطها بالتجربة اليومية لعالمنا الحياتي) و"الواقعي الخيالي" (ذلك الشيء ما الغامض الذي لا يمكن تحديده والذي يدخل انقساماً ذاتياً في كائن عادي ليضيء البعد السامي من خلاله)". (Žižek, on belief, 2001, p. 82)

يشير جيچيك في البداية الى ضرورة التفرقة بين الواقع الظاهر للرأسمالية، أي باعتبارها تنتمي لحضارة معينة، وبالتالي فهي عالمية وتتجاوز كل الثقافات وبين الرأسمالية كنظام واقعي لا من حيث أنها بنية تحكم ممارساتها الاقتصادية والسياسية فقط، بل من حيث إنها بنية تحكم طريقة عملها، ولكن لا يتم الأمر في العلن والظاهر، بل في الخفاء؛ أي البنية الخفية التي تحدد العلاقات والآليات الأساسية للرأسمالية في جوهرها، (جيچيك، العنف: تأملات في وجوه الستة، 2017، صفحة 84)، وفي هذا يقول جيچيك: "إن الصراع السياسي من أجل الهيمنة الذي تظل نتيجته رهينة للظروف والحاجز" اللاتاريخي" أو الاستحالة، مترابطان بشكل صارم، فهناك صراع على الهيمنة تحديداً لأن هناك حاجزاً مستقبلاً من الاستحالة يدعم الفراغ الذي يتجلى في هذا الصراع من أجل الهيمنة". (Zizek, Contingency, Hegemony, Universality Contemporary Dialogues on the Left, 2000, p. 111)

إن مفهوم "الواقعي-الرمزي" الذي يمثل مستوى الواقع غير قابل للإدراك، بل يتجلى عبر البنية الرمزية التي تمنحه طابع المراوغ، حيث ربطه "جيچيك" بالرأسمالية، وجد أن هذا الأخير بمثابة نظام إيديولوجي، لكنه لا يقدم كإيديولوجيا في حد ذاته بل يظهر كحقيقة حتمية، مما يجعل مقاومته تتسم بالصعوبة والتعقيد، وبالتالي فالإيديولوجيا ليست مجرد نظام للتمثيل الخاطئ أو الزائف، بل آلية لإنتاج الواقع ذاته، فإذا تكلمنا مثلاً عن السوق باعتباره بنية أساسية تحكم الاقتصاد والمجتمع، فإننا حسب منظور "جيچيك" لا نصف واقعا موضوعيا بقدر ما نمارس عملية ترميز إيديولوجي، حيث يتم تأطير تقلبات السوق ضمن سردية تجعلها تبدو وكأنها ضرورات طبيعية لا مفر منها، وانطلاقاً من هذا فالمقاربة الجيجيكية تكشف عن مفارقة أساسية في فلسفته. فرغم تفكيكه للإيديولوجيا الرأسمالية، إلا أن جيچيك في الآن ذاته يعيد إنتاج لرؤية كلية شاملة للرأسمالية لا بوصفها نظاماً اقتصادياً فقط، بل باعتبارها البنية الرمزية التي تكشف عن تناقضاتها من الداخل، فالرأسمالية مجال رمزي يحمل داخله انقساماً بنيوياً جوهرياً وهو الانقسام الذي ينتج الاستعباد الاجتماعي، ويجعل بعض الفئات غير مرئية أو غير قابلة للتمثيل داخل النسق الرمزي السائد.

5-توسيع جيجيك لمفهوم الإيديولوجيا

يعيد "سلافوي جيجك" تعريف الإيديولوجيا بحيث لا تكون مجرد نظام من الأفكار المهيمنة أو كمجموعة زائفة من التمثيلات للواقع، بل يوسعها لتصبح البنية اللاواعية التي تنظم علاقتنا بالعالم الرمزي ذاته، وعبر هذا التوسيع المفاهيمي يرد "جيجك" على انتقادات الفكر ما بعد الحداثي الذي أعلن موت الإيديولوجيا، ولعل مقولات التحليل النفسي اللاكاني كانت السند الأهم "لجيجك" في انجاز هذه المهمة. هذا التحول المفاهيمي للإيديولوجيا يجعلها أكثر التصاقا بالواقع مما كان يعتقد في السابق، بل ويؤدي الى استنتاج أكثر راديكالية مفاده أن التحرر لا يكمن فقط في كشف تناقضات الإيديولوجيا، بل في اختراق بنيتها الفانتازية التي تهيكل وعينا ذاته، وبوجع عام فإن توسيع "سلافوي جيجك" لمفهوم الإيديولوجيا يتجلى من خلال نقطتين أساسيتين: أما الأولى فتفصح عن نفسها في إعادة تعريف الآلية التي من خلال تعمل الإيديولوجيا، وبذلك انتقل "جيجك" من النموذج التقليدي الذي يرى أن الإيديولوجيا تعمل من خلال الوعي الى أنموذج جديد يركز على مجال اللاوعي، أما التوسيع الثاني الذي أقامه "جيجك" فيتركز على الانتقال من نموذج الماركسية التقليدية للإيديولوجيا القائم على مفهوم فائض القيمة الى مستوى آخر ينصب على التحليل النفسي، حيث يعيد "جيجك" صياغة هذا المفهوم عبر الانتقال الى فائض المتعة.

1-5 الإيديولوجيا من مجال الوعي الى مجال اللاوعي.

يطرح "سلافوي جيجك" نقلا مفاهيميا عميقا في كيفية فهمنا للإيديولوجيا، فبدلا من اعتبار الوعي الفردي هو المجال الرئيسي الذي تعمل فيه الإيديولوجيا يؤكد جيجك أنه ينبغي تداول الإيديولوجيا في مستوى اللاوعي الانساني، حيث تتشكل الهوية الذاتية والعلاقات الرمزية مع العالم، ومن ثمة فإن موقفه يتوافق مع ما قدمه الفيلسوف الفرنسي "لوي ألتوسير" من تأويلات للماركسية التقليدية أفضت به الى القول أن مجال الإيديولوجيا هو اللاوعي وليس الوعي، وبكلمة مكثفة يرى "ألتوسير" أن الإيديولوجيا تعمل على جعل وعي الناس بواقعهم الاجتماعي وعيا خياليا، وإذا كانت الإيديولوجيا تقدم نفسها بمثابة نسق من التمثيلات، فإن هذه الأخيرة في الغالب لا ترتبط بالوعي بل باللاوعي، (Althusser, 1969, p. 233).

ضمن هذا المنحى، يستخدم "جيجك" إعادة قراءة "لاكان" لتصوير "فرويد" حول اللاوعي لتحليل كيفية إعادة إنتاج الإيديولوجيا، فاللاوعي وفق المنظور اللاكاني ليس مجرد مستودع للرغبات اللاشعورية المكبوتة والغرائز، بل هيكل نفسيا معقدا ينظم كيفية تفاعل الذات مع الواقع وإعادة بناءه. وبالتالي، فهو يتشكل عبر الرمزية واللغة، ومنه فالإيديولوجيا تبنى في الأساس من الرموز اللغوية التي تصوغ إدراكنا للواقع، ولا تستخدم فقط كأداة لتوجيه الأفراد بل هي وسيلة لإعادة إنتاج الأنظمة القائمة على الهيمنة وضمن استمرار وجودها من خلال إخفاء التناقضات الهيكلية الموجودة فيها، يقول جيجك: "إن وجهة نظرنا في أن هذه السمة عالمية، لا

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

توجد إيديولوجيا لا تؤكد نفسها عن إيديولوجيا أخرى "مجردة"، والفرد الذي يخضع للإيديولوجيا لا يمكنه أبداً أن يقول لنفسه "أنا في الإيديولوجيا"، بل هو دائماً بحاجة الى مجموعة أخرى من الأداء أو المعتقدات لتمييز موقفه الحق عنها". (Žižek, mapping ideology, 1994, pp. 11-12).

إن ما يلفت الانتباه في طرح "سلافوي جيچيك" هو أن الإيديولوجيا لا تشتغل على مستوى الوعي فحسب، بل تمتد إلى بنية اللاوعي ذاتها، مما يجعلها أكثر رسوخاً في تشكيل إدراك الأفراد للعالم. فالعلاقة الإيديولوجية، في جوهرها، ليست علاقة اختيارية أو طوعية، حيث لا يدخل الأفراد في الإيديولوجيا عبر قرار واعٍ، بل يجدون أنفسهم دوماً متورطين ضمنها، كأنها بنية قبلية تسبق أي فعل إدراكي أو تأويلي للواقع، بهذا المعنى، لا تكون الإيديولوجيا مجرد محتوى فكري أو منظومة من القيم التي يتبناها الفرد، بل هي الإطار الذي يجعل إدراك الواقع ممكناً أصلاً، حيث تحدد، بطريقة ضمنية، ما هو قابل للتفكير فيه، وما يُستبعد باعتباره خارج دائرة الفهم. وعليه، فإن حتى محاولات الفرد للتحرر من إيديولوجيا معينة تظل مشروطة بأطر إيديولوجية أخرى تعمل على مستوى اللاوعي، مما يعيد إنتاج التماهي الأيديولوجي بأشكال جديدة وغير مرئية. وفي هذا الشأن يقول فيرجوس براون-أوبرني "لا تقتصر الالتزامات الإيديولوجية على شيء ذي أهمية واضحة، مثلما نجد في الاعتقاد الديني، لأن الخاضعين أنفسهم ليسوا على دراية بهذه الالتزامات، وبما تنطوي عليه، ومن ثم فإن العلاقة الإيديولوجية ليست مسألة اختيار واع". (Fergus, 2011, pp. 14-15)

2-5 من فائض القيمة الى فائض المتعة.

إن أي نقاش فلسفي حول التناظر بين فائض المتعة وفائض القيمة، يجب أن يبدأ من إطار التحليل النفسي الذي يثبت أن هناك فرقاً أدنى أو اختلافاً أساسياً في شكل البنية الجوهرية للإنسان، وهذا الفرق لا يتعلق بالطبيعة المادية أو البيولوجية فقط، ولكنه يتجلى في البعد الرمزي والنفسي الذي يشكل ذاتية الفرد، وعلى النقيض من النظريات التبعية التي تنكرو وجود أي مفهوم للطبيعة البشرية وتتجاهل الفجوة الأنطولوجية باعتبارها نقصاً متأصلاً في الإنسان يدفعه الى السعي والابتكار والرغبة، فإنه بالنسبة "لجيچيك" فإن المفتاح لما يعرف بـ "الدرجة صفر للإنسانية"، يكمن في مفهوم "فرويد" عن غريزة الموت، يقول جيچيك: "مفارقة غريزة الموت الفرويدية تكمن في أنها وفقاً "لفرويد"، لا تشير في حقيقتها إلى الموت بحد ذاته، بل الى نقيضه، إنها تمثل في التحليل النفسي شكلاً من أشكال الخلود الذي يظهر كفائض غريب عن الحياة، كقوة غير ميتة تستمر وتتجاوز الدورة البيولوجية المعتادة للحياة والموت والتكوين والفساد". (Žižek, the parallax view, 2006, p. 61)

إن هذه الأنثروبولوجيا الحدية لغريزة الموت تسمح للفيلسوف السلوفي "جيچيك" بتطوير فكرة اللذة الفائضة التي تعادل في نظراً كان مفهوم القيمة الفائضة لدى ماركس، فاللذة الفائضة

تعكس الفائض الناتج عن السعي الى اللذة في النظام الرمزي، فهي ليست اللذة البسيطة، بل فائض اللذة الذي يتحقق من خلال التكرار القهري والانخراط في النظام الرمزي وهذا ما يقابل في الفلسفة الماركسية "فائض القيمة" التي تعبر عن الفائض الناتج عن العمل البشري في النظام الرأسمالي، أي تلك القيمة التي تتجاوز ما يتطلبه الحفاظ على الحياة أو تحقيق الحاجيات الأساسية. إن الاستمتاع اللاواعي كما صاغه "جيجك" يعبر عن أحد أهم اسهامات "جيجك" الأصلية في نظرية الإيديولوجيا ، وهذا ما دفع أحد أبرز المشتغلين بالمنتج الفلسفي لجيجك "جودي دين" إلى الإقرار في مقدمة كتابه " Žižek's politics " إلى اعتبار الناظم النظري لمشروع "جيجك" الفلسفي في الإيديولوجيا والفكر السياسي يتحدد في مفهوم المتعة، (Jodi, 2006, p. xvi). استوحى "جيجك" مفهوم المتعة من معلمه "جاك لاكان" ، وهو مفهوم يختلف عن اللذة التقليدية؛ إذ لا يتعلق بمجرد الإحساس بالمتعة، بل يتجاوز ذلك ليحتوي في جوهره على عنصر من التوتر والألم، لكنه مع ذلك يمارس نوعا من الجاذبية القسرية التي تدفع الذات بقوة وشغف الى الاستمرار في تجربته، ومن هذا المنطلق فإن تحليل كيفية توظيف الإيديولوجيا للاستمتاع يعد مفتاحا أساسيا لفهم قوة الهيمنة الرمزية، وكذلك يجيب عن مسألة سبب بقاء الأشخاص مرتبطين ومنخرطين في أنظمة سياسية واجتماعية حتى في الحالات التي يبدو فيها أنها تتناقض مع مصالحهم المباشرة، وقد يصح القول-على الأقل جزئيا- إن ذلك الحال يعزى الى وجود استمتاع لا واعي يدفعهم الى انتاج نفس الخضوع. وهكذا، فإن الإيديولوجيا لا تعمل فقط من خلال القمع أو الإقناع، بل من خلال تشكيل أنماط من الاستمتاع تجعل الأفراد منغمسين في علاقات هيمنة حتى وهم يعتقدون أنهم يسعون للتحرر منها (Boucher, 2010, pp. 7-8)

يعتقد "جيجك" أن ضرورة الاستهلاك المفرط في الرأسمالية المتأخرة لا تتمظهر فقط كحاجة اقتصادية تبحث عن أقصى قدر ممكن من الإشباع، بل إنها تتجلى كمنظومة إيديولوجية تفرض تصورا عاما عن الإشباع الذاتي عبر الاستهلاك، وهو تصور تستيطنه جميع المواقف المؤيدة لهذا النمط الاجتماعي، فما يميز الرأسمالية الاستهلاكية عن غيرها من الأشكال الاجتماعية هو اندماج الأمر بالاستمتاع ضمن بنيتها القانونية بحيث يصبح الاستمتاع ذاته واجب وضروري، وضمن هذا السياق ينهار التمييز التقليدي بين القانون والمتعة؛ إذ لم يعد القانون يمثل حدودا تكبح جماح اللذة، بل بات يفرضها كواجب اجتماعي واقتصادي، مما يحول الاستهلاك الى ممارسة قسرية تمارس باسم الحرية، ووفقا لهذا المعنى فإن "جيجك" يفصح عن التناقض الأساسي المتأصل في بنية الرأسمالية المتأخرة، فهي تدعي تحرير الفرد؛ لكنها في الآن ذاته تلزمه بنمط محدد من الرغبات محولة الاستمتاع الى شكل من أشكال السيطرة الإيديولوجية، ومن هذا المنظور فإن الرأسمالية الاستهلاكية حسب "جيجك" تحدث انقلابا في منطق السلطة الإيديولوجية، حيث لم يعد الخضوع

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

يتجسد عبر سلطة أبوية قمعية من خلال مقولات: الوطن، الله، العرق، الطبقة. الخ...، بل تم استبدال ذلك بأمر صريح بالاستمتاع، فعلى خلاف النظم التقليدية أين كان الاستمتاع إما مكبوتا في مستودع الرغبات اللاشعورية للفرد، أو مكموعا من طرف سلطة خارجية، أو ممارسا بطريقة خفية مستترة، فإنه في الرأسمالية المتأخرة يظهر كقاعدة إلزامية وضرورية ومشروعة كل المشروعية، بل أكثر من ذلك يتم دمج حتى أفضع أشكال المتعة انحرافا وشذوذا في منطق السوق الاستهلاكي، ويتم تطويع رغبات الأفراد باستمرار حتى تتلاءم مع متطلبات سير المنظومة الاقتصادية، (Žižek, The Ticklish Subject: The Absent Centre of Political Ontology, 2008, p. 452).

هكذا تصبح الإيديولوجيا أشد فعالية لأنها تخلت عن منطق القمع المباشر وتحولت الى بنية تعيد إنتاج اللذة ضمن حدود السوق، مما يجعل الاستهلاك والنجاح الاجتماعي يتجاوز منطق الاختيار الواعي الحر إلى كونه ضرورة أنطولوجية، ومن هذا المنطلق فإن الإيديولوجيا لا تعتمد فقط على البنى الرمزية والخطابات العقلانية، بل تستند إلى نواة من المتعة غير المحددة؛ وهي نوع من الاستمتاع الغامض على حد تعبير "لاكان"، وبالرغم من الطابع الغامض وغير الدقيق لهذه المتعة، إلا أنها تعمل كقوة دافعة تبقي الأفراد مرتبطين دوما بالإيديولوجيا دون وعيهم المباشر بذلك، غير أن هذه المتعة لا يمكن أن تظل مجرد إحساس داخلي مجرد، بل تحتاج إلى تجسيد خارجي حتى تصبح فاعلة، لذلك تعتمد الإيديولوجيا خلق كيان وهمي أو رمزي في الواقع لكي تنسب إليه دلالة ومعنى، وهذا ما يضمن استمرار انخراط الأفراد اللاواعي في النظام الإيديولوجي.

6- تجاوز الإيديولوجيا:

يتحدى "سلافوي جيچيك" الطروحات ما بعد الحداثية التي تتبنى إمكانية وجود واقع خارج بنية الإيديولوجيا، أي نهاية الإيديولوجيا، وعوضا عن ذلك فإن ما يوجد فقط فهو تعددية العوالم الخطابية والرمزية، غير أن هذا بالنسبة "لجيچيك" شكل حلا إيديولوجيا بامتياز؛ إذ أنه حسب رأيه كل محاولة لتعريف موقع النقد بصورة ايجابية تعيد انتاج الإيديولوجيا بدلا من تفكيكها، لأن هذه الأخيرة لا تعمل فقط من خلال فرض نظام دلالي، بل من خلال إخفاء بنيتها الذاتية أيضا (matthew sharpe, 2010, p. 33)، ومن هنا يصبح النقد الفعال للإيديولوجيا غير ممكن، إلا عبر الكشف عن هذه البنية من موقع خال من أي تحديد جوهري، أي موقع يشبه "النقطة الفارغة" في نظرية لاكان، حيث يتموضع اللاواعي ضمن أطر النظام الرمزي بوصفه استحالة داخلية لا يمكن استيعابها بالكامل، ومن ثم فالإيديولوجيا كما رأينا سابقا لا تعمل من خلال خلق رؤى زائفة فحسب، بل عبر خلق انسجام وهمي بين الفرد والواقع؛ لذلك فإن تجاوز الإيديولوجيا لا يكون عبر البحث عن حقيقة منفصلة عنها، بل من خلال الإبقاء على وعي نقدي مستمر بهذا الصراع، أي إبقاء التوتر الدائم بين الإيديولوجيا والواقع على الرغم من أنه لا يمكن رسم حدود صارمة بينهما، وفي هذا الشأن يقول سلافوي جيچيك: "الإيديولوجيا ليست كل شيء،

فمن الممكن افتراض يسمح لنا بالحفاظ على مسافة نقدية منها، لكن هذا الموقع الذي يمكن منه فضح الإيديولوجيا يجب أن يظل فارغا، فلا يمكن أن يشغله واقع محدد بشكل إيجابي، فبمجرد أن نستسلم لهذا الإغراء نكون قد عدنا للإيديولوجيا مجددا". (Žižek, mapping ideology, 1994, p. 11).

إن تجاوز الخيال الإيديولوجي في المنظور الجيجيكي لا يمكن تناوله واستيعابه بمعزل عن مفاهيم "لاكان" حول العرض والرغبة والدافع، ففي سياق التحليل النفسي اللاكاني لا يفهم العرض على أنه مجرد خلل عرضي، بل هو الموقع الذي تتجلى فيه التناقضات الأساسية للذات ورغباتها المستحيلة، وهكذا فالخيال الإيديولوجي يعمل كآلية دفاعية تحاول احتواء هذا العرض وإعادة دمجه في بنية متماسكة ظاهريا، وهكذا يعمل الخيال الإيديولوجي على إعادة إنتاج مفاهيمه التأسيسية من خلال تحميل العرض مسؤولية الفشل بدلا من مواجهة تناقضاته البنيوية.

إن الهدف الأساسي للخيال الإيديولوجي بالنسبة "لسلافوي جيجك" هو محاولة إخفاء التناقضات الاجتماعية وإعادة إنتاجها في شكل مقبول داخل أطر النظام الرمزي، ولهذا السبب يرى "جيجك" أن الإيديولوجيا تتضمن تبريرا مسبقا لفشلها في بنيتها ذاتها، بحيث يظهر هذا الإخفاق كمجرد انحراف عن المسار الطبيعي أو تعبير عن فشل مؤقت وليس تمثلا أساسيا لتناقض جوهرى في بنيتها، يقول جيجك: "تشكل فكرة الخيال الاجتماعي إذا المقابل الضروري لمفهوم التناقض، فالخيال تحديدا هو الطريقة التي يتم بها تحييد البنية التناقضية، وبعبارة أخرى الخيال هو الوسيلة التي تستخدمها الإيديولوجيا لإدخال فشلها ضمن نسيجها ذاته". (Žižek, the sublime object of ideology, 1989, p. 142).

من هذا المنطلق يؤكد "جيجك" أن الخيال الإيديولوجي لا يقتصر على تقديم صورة مشوهة عن الواقع، بل يعمل على إعادة تشكيل إدراك الأفراد له بشكل يخدم استدامة البنية الاجتماعية القائمة. وتتمثل هذه العملية في إخفاء التناقضات الاجتماعية الداخلية من جهة، وإرجاعها إلى أسباب خارجية زائفة من جهة أخرى. فعلى المستوى الأول، يقوم الخيال الأيديولوجي بإعادة تشكيل المشهد الاجتماعي بطريقة تخفي الانقسامات والتوترات الجوهرية، مما يجعل البنية السائدة تبدو وكأنها خالية من الصراعات الجوهرية، بينما هي في الواقع قائمة على تناقضات بنيوية عميقة، أما على المستوى الثاني فبدلاً من الاعتراف بجذرية هذه التناقضات، يتم إلقاء اللوم على عناصر خارجية، مثل "التحديات الأجنبية"، أو "الانحرافات الفردية"، أو "القوى التخريبية"، مما يسمح للنظام القائم بالتملص من مسؤوليته وإدامة سلطته دون مواجهة حقيقية مع مشكلاته البنيوية، (جيجك، سنة الأحلام الخطيرة، 2013، الصفحات 29-30) وفي هذا المقام يعطينا "جيجك" مثالا عن النموذج النازي كمثال كلاسيكي على آلية الإزاحة الإيديولوجية، حيث يتم إخفاء الأسباب الحقيقية للصراع الاجتماعي عبر إرجاعها إلى كيان خارجي متخيل. وفي هذا

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

السياق عمل التخييل النازي على إعادة تأويل الأزمات البنيوية للمجتمع الألماني من خلال خلق عدو وهمي، تمثل في اليهود، وتصويرهم كقوة تتحكم في نسيج الحياة الاجتماعية وتهدد استقراره. (Žižek, For They Know Not What They Do: Enjoyment as a Political Factor, 1991, p. ci)

يؤكد "سلافوي جيچيك" بالاستناد الى مقولات التحليل النفسي اللاكاني أن عبور الخيال يمثل لحظة مفصلية في التحرر من الإيديولوجيا، إنها اللحظة التي يتفكك فيها الفعل الرمزي، ففي نظر "جاك لاكان" يعتبر "الأخر الكبير" هو البنية الرمزية التي يفترض أنها تضمن المعنى والنظام في العالم، (جيچيك، 2024، صفحة 19) لكن هذا "الأخر الكبير" ليس كيانا كاملا ومتماسكا، بل هو وهم ضروري تستند اليه الإيديولوجيا لاستمرار هيمنتها؛ لذلك فإن تعليق افتراض وجود "الأخر الكبير" ليس مجرد نقد ايديولوجي خارجي، بل هو إيقاف لعملها من الداخل عبر تفكيك الأساس الذي يجعلها تبدو طبيعية وضرورية، ففي التحليل النفسي اللاكاني الذات ليست كيانا كاملا، بل هي منقسمة بنيويا؛ إذ أنها تتشكل من خلال التفاعل مع النظام الرمزي الذي يمنحها هوية؛ لكن مع ذلك تظل تعاني من الاغتراب، وهذا الانقسام لا يشملها هي فقط، بل يمتد أيضا ليشمل "الأخر الكبير"؛ لذلك حين يدرك المحلل النفسي أن "الأخر الكبير" ليس كاملا ويعاني من النقص والعجز، عند هذه اللحظة فقط يتحقق ما يسميه لاكان "الخراب النفسي"؛ الذي يعني إمكانية تعرف الذات على نقصها باعتباره متطابقا مع نقص الآخر (Žižek, For They Know Not What They Do: Enjoyment as a Political Factor, 1991, p. ci) وفي هذا الصدد يقول سلافوي جيچيك: "يسعى المحلل في البداية الى تفادي مواجهة فراغه الوجودي عبر آلية التحويل، وذلك من خلال تموضعه كموضوع لرغبة المحلل وحب، غير أن انحلال التحويل يتحقق فقط عندما يتخلى المحلل عن وهم سد الفجوة البنيوية، أي عندما يكف عن محاولة ملأ نقص الآخر". (Žižek, the sublime, object of ideology, 1989, p. 132) وفي هذه اللحظة يحدث الوعي بالفراغ الذي يخلفه النظام الرمزي، وعندها تكتشف الذات أنه لا يوجد ضمان خارجي للمعنى وتصبح المسؤولية كلها ملقاة على عاتق الفرد الذي يجد نفسه وحيدا في مواجهة حالة الفراغ واللامعنى، وفي نفس الوقت مسؤولا عن اتخاذ القرار التالي دون أي ضمانة خارجية تعينه في ذلك.

ما يمكن قوله بالنسبة للخيال الايديولوجي أنه لا يعمل كأداة خارجية مفروضة على الأفراد من الخارج، بل هو منظومة إدراكية متكاملة تعمل على ضبط وتأطير وعي الأفراد؛ بحيث يصبح تصورهم للواقع متماهيا ومنسجما مع التوجهات الايديولوجية للنظام القائم، وخادما لمصالح الطبقات الاجتماعية والأنظمة الاقتصادية المسيطرة، (Jodi, Žižek's Politics, 2006, p. 13) وتأسيسا على ذلك فقوة الإيديولوجيا لا تكمن فقط في قدرتها على إخفاء الصراع الاجتماعي أو تشويهه أو إرجاعه إلى اسباب واهية وثانوية، بل في جعلها الأفراد ينظرون إلى العالم بعين النظام

نفسه، وهذا يعني ضمنا وإفصاحا العمل بكل الوسائل على وأد أي حركة تسعى إلى التغيير في العالم، أو تحاول سلوك خط آخر لا يندرج في تلك الإيديولوجيا القائمة؛ بحيث تغدو البنية القائمة وكأنها الضرورة المطلقة وليست مجرد حالة تاريخية قابلة للاختراق. (الشريف، 2021، صفحة 101)

7- خاتمة.

نستنتج في الأخير أن مقولات التحليل النفسي اللاكاني تحتل موضعا أساسيا في تشكيل نظرية الإيديولوجيا في أعمال "سلافوي جيچك"؛ لذلك فإن "جيچك" يعيد قراءة "لاكان" ضمن نقده للإيديولوجيا، ومنه فقد حاولنا في هذه الورقة البحثية استكشاف تأثيرات التحليل النفسي اللاكاني في إعادة صياغة "جيچك" لنظرية الإيديولوجيا، وكيف تحكم هذه الأخيرة قبضتها على الفرد.

إن النظرية النقدية للإيديولوجيا التي قدمها "سلافوي جيچك" تمثل اسهاما أصيلا في فهم الظواهر المعاصرة، حيث نجح في استثمار المفاهيم والمقولات اللاكانية لإحداث ثورة في فهم الإيديولوجيا، فلم تعد هذه الأخيرة مجرد تعبير عن وعي زائف أو مجرد تشويه معرفي للواقع بل ينظر إليها "جيچك" باعتبارها بنية رمزية تتحكم في ادراك الذات والعالم.

يتحدى "جيچك" بشكل واضح الطروحات الفلسفية القائلة " بموت الايديولوجيا" أو "أقول الإيديولوجيا" أو أننا نعيش في عصر ما بعد الإيديولوجيا، وهو ادعاء شائع في الخطابات الليبرالية حيث تقدمه كخطاب مضاد للإيديولوجيا من خلال المقولة الفوكويامية القائلة بانتهاء التاريخ الى النظام العولمي؛ بحيث يغدو من المستحيل تجاوزه واستبداله بأي نظام آخر سياسيا كان أم اقتصاديا، ولكن "جيچك" يعتقد أن مقولة "نهاية الايديولوجيا" هي في حد ذاتها مقولة إيديولوجية.

كان الهدف الأساسي لهذا المقال هو تأكيد الانفصال بين النظام الرمزي والنظام الواقعي في نظرية الإيديولوجيا، فالرمزي هو المجال الذي يتشكل فيه المعنى من خلال اللغة والقانون والبنية الاجتماعية، بينما يشير الواقعي إلى ما يفلت من التمثيل الرمزي، كما بينا كيفية بناء "سلافوي جيچك" للإيديولوجيا من خلال الفئات اللاكانية للذات (الرمزي، الواقعي، الخيالي)، والأثار المترتبة عن هذا المنهج.

إن نظرية "جيچك" تتجاوز التقسيم التقليدي للإيديولوجيا (إيجابية ام سلبية) والصراع الطبقي، ولكنه يميز أيضا بين الارتباط الإيديولوجي اللاوعي والخيال الواعي؛ الذي يسمح للذات بتبرير هذا الارتباط.

يعطي "سلافوي جيچك" الأولوية للاوعي على الوعي في معالجته للإيديولوجيات، والسمة المركزية لهذه الأخيرة أنها صناعية أو تستخدم مبررات واعية لإزاحة المعتقدات الأساسية.

أثر التحليل النفسي اللاكاني في تشكيل نظرية الإيديولوجيا عند سلافوي جيچيك

يطرح "جيچيك" في نظريته عن الإيديولوجيا تصورا جذريا لفعل التفكيك الإيديولوجي، حيث لا تتجلى مهمة التفكير النقدي في الكشف عن حقائق مسبقة، بل في إعادة تسليط الضوء على العناصر التي كانت كامنة داخل البنية المعرفية للذات؛ لكنها لم تكن متموضعة في مجال الإدراك الوعي بشكل كامل، وهذه الفكرة تتماشى مع التصور اللاكاني عن اللاوعي.

إن تشكيل نظرية لأكانية جديدة في الإيديولوجيا تطلب من "جيچيك" توظيفاً صارماً للمنهج الجدلي، وفي الآن ذاته إعادة إحياء بعض عناصر النظرية الماركسية التقليدية، حيث لا ينظر إلى الإيديولوجيا بوصفها مجرد منظومة خطابية زائفة، بل باعتبارها بنية ذاتية الإنتاج تخفي تناقضاتها الداخلية عبر آليات اللاوعي، وهنا تبرز الأبعاد الجدلية الهيغلية في فلسفة "سلافوي جيچيك"، فهو يعيد قراءة لاكان عبر هيغل مما يمكنه من تقديم تصور أكثر ديناميكية عن كيفية تشكل الإيديولوجيا واستمرار تأثيرها.

إن هذه القراءة التي قدمها "جيچيك" تؤكد على تداخل اللاوعي والإيديولوجيا، حيث يصبح النقد الإيديولوجي عملية تحليل نفسي موسعة للمجتمع نفسه، وبذلك تتجاوز نظرية "جيچيك" في الإيديولوجيا التصور الماركسي التقليدي القائم على التحليل المادي للبنية الاقتصادية والاجتماعية، بل تندمج مع التحليل النفسي لتكشف عن البنية الوهمية التي يمنحها استقرارها الزائف؛ لذلك فإن "جيچيك" أعاد بحيوية النقاش حول الإطار الفكري الذي يحكم العلاقة بين التحليل النفسي والسياسة.

إن نظرية "جيچيك" في الإيديولوجيا ترسم جدلية داخل الذات نفسها، وهذا من شأنه أن يشير إلى إمكانية هامة للتغيير الإيديولوجي.

8- قائمة المراجع :

أولاً: المراجع باللغة العربية

1. جيچيك، س. (2017). *العنف: تأملات في وجوه الستة* (الإصدار الطبعة الأولى). (فاضل جكتر، المترجمون) لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
2. جيچيك، س. (2015). *بداية كمأساة ونهاية كمهزلة* (الإصدار الطبعة الأولى). (أمانى لازار، المترجمون) لندن: طوى للثقافة والنشر والإعلام.
3. جيچيك، س. (2024). *تر: عبد الفتاح عبد الله، كيف تقرأ لاكان*. ط1. مصر: مؤسسة هنداوي.
4. جيچيك، س. (2013). *سنة الأحلام الخطيرة*. لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
5. حمدي، ع. (2021). *أزمة الرأسمالية وتحولات الخطاب الليبرالي: سلافوي جيچيك ونقد الإيديولوجيا* (الإصدار الطبعة الأولى). مصر: دار العلا للنشر والتوزيع.

ثانياً: المراجع باللغة الأجنبية

1. Althusser, L. (1969). *For Marx*. (B. Brewster, Trad.). London: The Penguin Press.

2. Boucher, M. S. (2010). *Žižek and politics a critical introduction*.
edinburgh: Edinburgh University Press Ltd.
3. campos, P. A. (2021). *the lacanian graph hidden behind Žižek's project of critique of ideology*. *international journal of Žižek studies*. 15(3), 1-18.
4. Zizek. S, Laclau. E, Butter. J. (2000) *Contingency, Hegemony, Universality Contemporary Dialogues on the Left*. london: verso.
5. Daly, S. Z. (2004). *Conversations with Žižek*. Cambridge: Polity Press.
6. Eagleton, t. (1994). *ideology*. new York: Longman.
7. Fergus, B.-O. (2011). *Ideology and Low Intensity*. School of Graduate.
Newfoundland: Memorial Univ.
8. Jodi, D. (2006). *Žižek's Politics*. London: Routledge.
9. matthew sharpe, g. m. (2010). *zizek and politics: a critical introduction*.
Edinburgh: Edinburgh University Press Ltd.
10. Myers, T. (2003). *Slavoj Žižek a critical introduction*. new York-
London: routledge.
11. Sánchez, G. I. (2008). *Psychoanalysis and politics: the theory of ideology in Slavoj Žižek*. *International Journal of Žižek Studies*, 2(3) .
12. Sharpe, M. (2004). *Slavoj Žižek a little piece of the real*. England:
ashgate.
13. Žižek, S. (2006). *How to Read Lacan*. New York- London: w.w Norton
company.
14. Slavoj, Ž. (2002). *Welcome to the Desert of the Real! Five Essays on
September 11 and Related Dates*. London: Verso.
15. Žižek, Ž. (2008). *Violence: Six Sideways Reflections*. New york: Profile
Books Ltd.
16. Žižek, S. (1989). *the sublime object of ideology*. London: verso.
17. Žižek, S. (1994). *mapping ideology*. London: verso.
18. Žižek, S. (2008). *The Ticklish Subject: The Absent Centre of Political
Ontology*. (London: Verso.
19. Žižek, S. (1991). *For They Know Not What They Do: Enjoyment as a
Political Factor*. London: Verso.
20. Žižek, S. (2001). *on belief*. London: routledge.
21. Žižek, S. (2006). *the parallax view*. Cambridge: mit press.